توطين الجماعات الإرهابية والمتطرفة في تعز

(المقدمات والنتائج)

د.عرفات الرميمة

باحث في الفكر العربي الإسلامي

arafatalromah@gmail.com

المقدمات:

من أين ابتدأت الحكاية؟ وكيف استطاع العدوان السعودي الأمريكي أن يجعل من مدينة التعليم والثقافة وكراً للإرهاب وخنجراً مسموماً يخترق خاصرة اليمن؟ وكيف تحولت مدارس تعز من منارات للعلم تشدو كل صباح بالنشيد الوطني إلى ثكنات عسكرية لتدريب المليشيات وسجونٍ يُقاد إليها من تشك تلك الجماعات بولائه لليمن - وليس للسعودية -؟ والأهم من كل ذلك: كيف استطاع ذلك العدوان أن يمتطي أحلام أبناء الحالمة، ويحولها إلى كوابيس سرقت أرواحهم قبل أن تسرق النوم من عيونهم؟

وقد يتساءل البعض - أيضاً - عن الأسباب التي دفعت حزب الإصلاح لاختيار مدينة تعز دون غيرها؟

هناك عدة عوامل جعلت من اختيار حزب الإصلاح وداعميه لمدينة تعز؛ كي تكون على ما هي عليه الآن، ومن أهم تلك العوامل:

١- تغلغل وهيمنة حزب الإصلاح على أغلب المناصب الإدارية في المؤسسات الحكومية المرتبطة بمصالح الناس وقوتهم اليومي - بسبب سياسة التقاسم التي تمت بينهم وبين حزب المؤتمر بعد حرب صيف ١٩٩٤م ضد الانفصال - والتعامل ببراغماتية جيّرت الخدمات المقدمة للناس من تلك المؤسسات لصالح الانتماء لحزب الإصلاح، واعتبارها منّة من الحزب وليست من واجبات الدولة.

٢- استغلال حزب الإصلاح للشعور المتعاظم لدى أبناء تعز بالتهميش، وبأنهم من الأطراف، وليسوا مركز اليمن "السفلى" في مقابل اليمن "العليا" كما يقال في اللهجات الدارجة، وتغذية ذلك الشعور عبر وسائل إعلامه المختلفة.

٣- الاستثمار الجيد للقوة المالية للفكر الوهابي الذي تجذر في المحافظة عبر سنوات

من خلال تواجد المعاهد العلمية في معظم مديرياتها التي تبنت السعودية إنشاءها وتمويلها منذ عام ١٩٧٥م؛ لمحاربة المد الشيعي في الشمال والمد الشيوعي في الجنوب كما قال الشيخ عبد الله بن حسين الاحمر رئيس حزب الإصلاح السابق في مذكراته، لم يكن هناك شيعة في الشمال؛ وإنما المقصود محاربة المذهب الزيدي، فنشرت الفكر الوهابي الإخواني من خلال إشراف عناصر الإخوان المسلمين عليها إدارة وتدريساً، بالإضافة إلى تواجد الجمعيات التابعة للسعودية - جمعية الحكمة اليمانية، كمثال فقط التي تبنت تشييد المساجد وتمويلها والاشتراط أن يشرف عليها خطباء وأئمة تابعون للجمعية المعروفة بنشرها المذهب الوهابي، ومحاربة المذهب الشافعي والطرق الصوفية؛ حتى استطاعت إزاحة المذهب الشافعي من تعز ؛ لفائدة القوة المالية الوهابية، فغدت معظم المساجد في تعز تدين بالمذهب الوهابي - خصوصاً بعد عودة مليون مغترب من السعودية إلى تعز عام ١٩٩٠م، بعد احتلال العراق للكويت - بالإضافة إلى كل ما سبق: تم استغلال الوضع المتردي لسكان تعز، باعتبارها خزاناً بشرياً كبيراً، قوامه خمسة ملايين نسمة، ينتشرون في معظم محافظات اليمن، وجلهم من فئة الشباب العاطل عن العمل الذي لا يستطيع توفير لقمة العيش - والعاطل أيضاً عن الأمل بغدٍ مشرق - مما يجعل منه فريسةً سهلة الاستقطاب والاحتواء للتنظيمات المتطرفة التي عزفت على الوتر المناطقي والمذهبي والطائفي، ووجدت لها أذاناً صاغية وعقولاً لا تفقه الواقع، ولا تفهم أبعاد اللعب بأوتار المناطقية على المدى القريب والبعيد في إخراج نغمة ناشزة عن التعايش.

لم يكن تحوّل تعز إلى مدينة تسرح فيها جماعات القاعدة اليوم وليد العدوان السعودي الأمريكي - فجر الخميس ٢٦ مارس ٢٠١٥م -، بل كان نتيجةً حتميةً سبقتها مقدمات منطقية، فقد عمل حزب الإصلاح حتى قبل العام ٢٠١١م، وأحداث ما يُسمى - مجازاً - الربيع العربي على اعتبار تعز إقطاعية خاصة به، حاول سلخها مراراً وتكراراً، وفي أكثر من مناسبة عن هويتها المدنية الوطنية وتحويلها إلى هوية مناطقية طائفية تسلخها عن هويتها اليمنية الجامعة تمهيداً لتوصل جماعة الإخوان في اليمن إلى سدة الحكم - تماهياً مع ما حدث في تونس ومصر - ولم يكن اختيار تعز من تحالف العدوان لتكون الخاصرة الرخوة في الداخل اليمني اعتباطياً، بل كان اختياراً مدروساً بعناية -

مهد له حزب الإصلاح منذ سنوات عدة - عن طريق العمل على إسقاط هيبة الدولة، وبالذات بعد أحداث ٢٠١١م، كانت الشعارات المرفوعة في المظاهرات الشعب يريد إسقاط النظام برمته وليس شخص الرئيس، وإقفال المدارس والمرافق الخدمية ومهاجمة معسكرات الحرس الجمهوري بدعوى أنه جيش عائلي يتبع على عبدالله صالح، وقوات الأمن الخاصة، وحدثت عدة اشتباكات بين عناصر من حزب الإصلاح من أفراد اللواء ٣٥ التابع للفرقة الأولى مدرع بقيادة علي محسن الأحمر أحد أعمدة النظام، بل عموده الرئيس الذي شفع له انتماؤه لجماعة الإخوان ليتبوأ مكان البديل المحتمل للرئيس السابق، وقد استعان على محسن بأهم أعمدة ورموز حزب الإصلاح في تعز، وخصوصاً القياديين: صادق سرحان وحمود سعيد المخلافي اللذين قادا عناصر حزب الإصلاح في اللواء ٣٥ مدرع في معارك ضد عناصر من قوات الحرس الجمهوري والقوات الخاصة، فبدأت حال تمركز دبابات ومدرعات تتبع اللواء ٣٥ تم إخراجها من معسكر اللواء في المطار القديم في جبل جرة المطل على مدينة تعز، والذي يؤمن تغطية نارية على بقية المواقع بحكم ارتفاعه، وبدأت باستهداف معسكرات الحرس الجمهوري، وقد حدثت مواجهات واشتباكات بين عناصر حزب الإصلاح وقوات الحرس الجمهوري في عدة شوارع؛ منها شارع جمال وباب موسى والحصب، واستمرت إلى حين تم التوقيع على المبادرة الخليجية يوم ٢٣ نوفمبر ٢٠١١م في الرياض، ولم يُسلم حمود المخلافي وصادق سرحان الأسلحة الثقيلة التي كانت متمركزة في جبل جرة بناءً على ما تم الاتفاق عليه، بل إنها كانت النواة لما حدث في تعز فيما بعد.

لقد غطى رماد المبادرة الخليجية وآلياتها المزمنة على جمر المواجهات التي حدثت في تعز عام ٢٠١١م، لكنه لم يطفئها، فقد يحتاجها من هندسوا تلك المبادرة التي كان من أهدافها وأد الثورة الشبابية وجعل ما حدث مجرد أزمة سياسية بين الفرقاء، فتم حلها عن طريق تلك المبادرة الملغومة. لم تهدأ تعز ولم تعد كما كانت قبل أحداث ٢٠١١م، فقد انكسرت الكثير من القيم التي كانت سائدة بين أبنائها، وتم تهيئتها لتكون مكباً لنفايات الأفكار المتطرفة، تلك التهيئة الفعلية بدأت عملياً منذ أواخر ٢٠١٣م، عقب خروج الجهاديين من منطقة دماج، وعلى الر غم من حرص قيادة الحوثيين وتشديدهم على ضرورة أن يخرج من دماج فقط من تثبت إدانته بالإقامة غير الشرعية للمقاتلين الأجانب، وتخيير من أراد من اليمنيين بين البقاء في دماج أو مغادرتها بغرض إطفاء نار

الفتنة؛ إلا أن تناول وسائل إعلام حزب الإصلاح والجماعات الوهابية لعملية التسوية تلك وإظهارها كأنها عملية تهجير قسري بغرض تغذية الشحن الطائفي والمناطقي، وبث روح العداوة والكراهية لكل ما يمت لمحافظة صعدة بصلة؛ تمهيداً لمرحلة الأخذ بالثأر متى ما سنحت الفرصة، وتم اختيار مدينة تعز حاضنة لكل تلك الأفكار المنادية بالثأر، من هنا توجه الكثير من أبناء تعز لنصرة إخوانهم في دماج، كما روج خطباء حزب الإصلاح والسلفيون في معظم مساجد تعز، فانتشرت عبارة (كلنا دماج) على الجدران في معظم شوارع وأحياء المدينة، وقد امتلأت تلك الجدران بعبارات الطائفية البغيضة المحرضة على قتل المخالفين - خصوصاً في حيي الجمهوري والمدينة القديمة -، كعبارات: الموت للرافضة، وتعز سنية وستبقى سنيّة، ولا مكان للحوثي في تعز - كل ذلك التحريض المدروس والممنهج كان يهدف إلى إقناع وعي الشارع في تعز بفكرة قتل الآخر المختلف عن فكر تلك الجماعات، وغرس العداء للحوثيين في لاوعي المواطن العادي الذي يحركه العقل الجمعي الذي يقود المواطنين في تعز والذي سيخرج متى ما سنحت له الفرصة بذلك.

وعندما تم الاتفاق بين الدولة والشيخ يحيي الحجوري - وبواسطة وإشراف السفارة الأمريكية - على إخراج العناصر السلفية التي كانت موجودة في دماج في منتصف يناير ٢٠١٤م ، كانت تعز هي الوجهة المفضلة لمعظم تلك العناصر.

وعلى الرغم من شروع بعض المثقفين والناشطين بالاعتراض على قدوم تلك العناصر التي تعمل عبر استخدامها لمنابر المساجد على بث أفكار التطرف ومحاصرة القيم المدنية والترويج للمشروع الطائفي في تعز والتهيئة الإعلامية والنفسية لجعل مدينة تعز ترتدي لبوس المناطقية والطائفية؛ فقد أثار ذلك الاعتراض حفيظة البعض من قادة حزب الإصلاح الذين شنوا هجوماً لا هوادة فيه ضد الناشطين، فشن خطباء الحزب في محافظة تعز- ووسائل إعلام الحزب المختلفة - حملة تخوين واتهامات ضد كل من يعارض سياسات الحزب الرامية إلى جر المحافظة إلى أتون الصراع الطائفي، متهمة كل من يقف ضد ذلك المشروع بأنه مجوسي إيراني كافر، ومن ضمن الذين تم تكفيرهم من نشطاء ومثقفي تعز ونوابها: الصحفي صلاح الدكّاك، والصحفية بشرى المقطري، والنائبان أحمد سيف حاشد وسُلطان السامعي، وتم اعتبار تلك الأسماء رموز

المجوسية في تعز. وتم ترجمة تلك الحملات التحريضية على أرض الواقع باغتيال قيادات الحوثيين في تعز وبعض الناشطين، منهم على سبيل المثال: العقيد المتقاعد إبراهيم عباس عامر يوم ٦ يوليو ٢٠١٤م في ساحة النادي الأهلي جوار إدارة أمن المحافظة، و أقدمت عناصر مسلحة تستقل دراجة نارية على اغتيال الناشطين جميل الوليدي، وعرفات محمد الصغير، بالقُرب من إدارة الأمن وقيادة محور تعز في حي الجحملية يوم ١٦ أغسطس، كما أقدمت عناصرُ أخرى تستقل دراجة نارية أيضاً على اغتيال الناشطين عبدِ الكريم غانم وعامر العامري يوم ١٧ سبتمبر ٢٠١٤م أمام مبنى الغرفة التجارية على خلفية تأييدهما للتظاهرات المناوئة للجرعة السعرية التي أقرتها حكومة باسندوة، وكانت سبباً في اندلاع ثورة ٢١ سبتمبر٢٠١٤م.

وقد شكَل قدوم الشيخ يحيي الحجوري - زعيم سلفيي دماج - إلى مدينة تعز برفقة عشرين سيارة مسلحة يوم ١٦ سبتمبر ٢٠١٤ م تأكيداً لجعل تعز وكراً للفكر السلفي الوهابي، وقبلة لحاملي ذلك الفكر من كل المحافظات، وذلك من خلال إلقائه العديد من المحاضرات التي تحذر من المد المجوسي الإيراني الذي يحاول السيطرة على اليمن.

وبُعيد انتصار ثورة ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م، وسقوط الفرقة الأولى مدرع وجامعة الإيمان؛ جن جنون عناصر حزب الإصلاح، وزادت من حملات التحريض ضد مكون أنصار الله، واعتبرت تلك الثورة انقلاباً يجب مواجهته بكل الوسائل، فقد تم توزيع البروشورات - من عناصر الحزب - على المدارس وداخل أروقة جامعة تعز - فقد سبق لهم إحكام السيطرة على كل مفاصل الحياة الجامعية الأكاديمية والإدارية بداخلها - والتي تشرح أخطار المد الصفوي في اليَمَن وغير ذلك من الشائعات التي روجوا لها بأن الحوثيين جاءوا لتغيير الكتب المدرسية واستبدالها بكتبهم التي تسب الصحابة وتسب السيدة عائشة وكل تلك الادعاءات التي لا تستند إلى أدلة ملموسة.

وفي إطار هذا المشروع التدميري، كانت جماعة الإصلاح - وخصوصاً بعد نجاحها في زراعة الكراهية والبغضاء بين فئات المجتمع على أسس طائفية ومناطقية - تتحرش بجماهير الثورة - وجماهير أنصار الله بالذات - منكرة انتماءها لتعز وتزعم في كُلّ مرة أن من يؤيد تلك الثورة هو "متحوّث" جاء من خارج تعز، وأنه دُفِع له ليخرج في المظاهرات المؤيدة للثورة، فيما كانت تلك الجماعات تحتشد للتظاهر في شارع جمال

تنديداً بانقلاب الحوثيين على الحكومة وتأييداً للجرعة السعرية التي أقرتها حكومة باسندوة، ومطالبة باجتثاث الحوثيين من تعز. وزادت وتيرة الاغتيالات لمن يُظهر تأييده لثورة ٢١ سبتمبر، فقد قام مسلحان يستقلان دراجة نارية ظهر يوم ١٩ نوفمبر ٢٠١٤م باغتيال الناشط الثقافي في أنصار الله بسام عبدالغني الجنيد في حي كلابه، وليس بمستغرب أن يتم تصفية كل من يقف ضد محاولات الإصلاح لإشعال الصراع الطائفي في تعز - حتى ولو كان ينتمي إليهم -. كما حصل مع الأمين العام المساعد لحزب الإصلاح في تعز صادق منصور الحيدري - وكان من الذين قدموا مبادرات لتجنيب المدينة أتون الحرب الطائفية والمناطقية -. وقد تم اغتياله بعبوة لاصقة زُرعت في سيارته بحي المسبح يوم ١٩نوفمبر٢٠١٤م، وأثبتت الأجهزة الأمنية فيما بعد أن الجماعات التكفيرية هي من وقفت وراء عملية الاغتيال هذه حيث كان الحيدري عضواً نشطاً في لجنة الوساطة بين الإصلاح وأنصار الله لتجنيب تعز أي مشاكل طائفية كما تروج جماعته.

ولم يكن الناشطون المدنيون وحدَهم الذين تمت إزاحتهم أمام مشروع إحلال الفوضى في تعز، فحتى القيادات الأمنية وأعضاء منظمات المجتمع المدني الرافضين لجر المدينة إلى الصراع تم استهدافهم أيضاً، ففي صبيحة الاثنين ٢٢ ديسمبر ٢٠١٤م، تم اغتيال الجندي في القوات الخاصة ماجد نعامة، وتم اغتيال الموظف في الهلال الأحمر عبد الله الغرباني بالطريقة ذاتها.

وتماشياً مع المخطط نفسه - وعزفاً على السمفونية الطائفية ذاتها - كشف القيادي في حزب الإصلاح وعضو مجلس النواب محمد ناصر الحزمي في مقاله الذي نشر يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر ٢٠١٤م في صحيفة (أخبار اليوم) عن دعوة حمود سعيد المخلافي - المنتمي إلى جماعة الإخوان - لأبناء تعز وإب العاملين في الوحدات العسكرية والأمنية إلى سرعة ترك وحداتهم ومعسكراتهم والعودة إلى محافظتي تعز وإب لتأسيس جيش (أنصار السُنّة)؛ لمواجهة مسلحيّ جماعة الحوثي في إقليم الجند - على حد وصفه -. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك أي وجود مسلح لأنصار الله في تعز - وهو ما تبرر به تلك الجماعات أسباب وقوفها في صف العُدْوَان السعودي الأمريكي بأنه ردّة فعل لما تقول عنه من نزول الجيش ومليشيات الحوثي في ٢١مارس٢٠١٥م إلى معسكر القوات الخاصة في

تعز - ودعا إلى رفض تواجد أنصار الله قائلاً: "إنه من المستحيل أن تقبَلَ المناطق السنية أن يحكمَها الحوثي" داعياً إلى الانضمام لدعوة المخلافي على حد قوله.

وقد تحدث (الحزمي) كذلك في مقابلته مع مجلة البيان/ العدد ٣٣٠ نوفمبر ٢٠١٤م بالنفس - الطائفي التحريضي - عينه بالقول: "كما أدعو أهل السنة في اليمن والجزيرة حكاماً ومحكومين أن يستفيدوا مما حصل لسنة العراق، لئلا يستفيقوا، وقد أصبح بعضهم معتقلاً وبعضهم مشرداً، والبعض الآخر مقتولاً. في عالم اليوم البقاء للأقوى واستطاع الأعداء تفريق السنة؛ كي يميتوا قوتهم"، وهذا يدل على النية المبيتة لدى حزب الإصلاح لإشعال فتيل الحرب الطائفية في اليمن - كما حدث في سورية والعراق - ، والتي انتظرت الوقت المناسب والدعم المناسب من العدوان السعودي الأمريكي؛ كي تبدأ.

كانت كل تلك التصريحات بمثابة توجيهات مدروسة تجسدت واقعياً عندما تمكنت عناصر من القاعدة من السيطرة على مديرية العدين في محافظة إب التي تتصل بمحافظة تعز من الجهة الشمالية الشرقية، وذلك يوم ١٦ أكتوبر ٢٠١٤م، وتوجهت منها إلى معسكر جبل رأس - الواقع على حدود مدينة تعز الشمالية - في يوم السبت ١نوفمبر٢٠١٤م؛ لترتكب مجزرة مروعة راح ضحيتها (١٩) من جنود الانتشار الأمني التابع لوزارة الداخلية - بحسب بيان النعي الصادر عن الوزارة في اليوم التالي - أثناء تأديتهم لصلاة المغرب إثر اعتداء إرهابي لتنظيم القاعدة على نقطتين أمنيتين وعلى إدارة أمن المديرية حيث نفذه مسلحو التنظيم بأكثر من عشرين سيارة وبمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والمدافع الرشاشة، فأحرقت القاعدة في ذلك الهجوم مدرعة ونهبت مخزن الأسلحة وأربع آليات تابعة لإدارة الأمن، وقد تحدث سكان المنطقة عن عملية إعدام وصفوها بالبشعة جراء تصفية الجنود القتلى - معظمهم كانوا جرحى - بالرصاص في الرأس والرقبة، فيما تم قتل نجل شيخ المنطقة ذبحاً بالسكين بحسب الشهود.

وعندها توجهت عناصر من الجيش واللجان الشعبية وخاضت معارك شرسة مع القاعدة توجتها باسترداد مركز مديرية العدين يوم الأربعاء ٥ نوفمبر، وتوجهت منها إلى معسكر جبل رأس، وحررته من عناصر القاعدة في ١٥ نوفمبر، وقد واكب عمليات

الجيش شحن إعلامي ممنهج ومدروس من وسائل إعلام حزب الإصلاح، وقناتي الجزيرة والعربية تتحدث ليلاً ونهاراً على أن الغاية من عمليات الجيش تلك هي استهداف أهل السنة من الشوافع، وأن مليشيا صالح والحوثي تحاصر مدينة تعز، وأنها تعد العدة؛ لاقتحام المدينة، والفتك بأبنائها، مما جعل معظم الأهالي في حالة ترقب وخوف وقلق مما تبثه تلك الوسائل.

وقطعاً للطريق أمام ذلك التحريض؛ حرص أنصار الله على عدم الدخول إلى مدينة تعز، وعقدت عدة لقاءات بين قيادة المحافظة والأحزاب السياسية، وتم الاتفاق على عدم دخول عناصر أنصار الله إلى تعز إلا باللباس العسكري، وتجنيد عدد من أبناء المحافظة في القوات الخاصة. وافق أنصار الله على تلك الشروط، ولم يدخلوا تعز مثلما فعلوا مع بقية المحافظات.

وتسارعت الأحداث وزادت تشابكاً وتعقيداً بشكل دراماتيكي وخصوصاً بعدما هرب الرئيس المستقيل عبد ربه منصور هادي من مقر إقامته في صنعاء يوم الجمعة ٢٠ فبراير ٢٠١٥م إلى عدن - وقد انتهت فترة رئاسته في نفس اليوم بناء على تمديد مؤتمر الحوار له لعام إضافي؛ لأن المبادرة الخليجية وآليتها المزمنة حددت فترة رئاسته بسنتين غير قابلة للتجديد، وبناء على قرار مجلس الأمن (رقم ٢٠٥١ فقرة ١٤ لعام٢٠١٢م) تبدأ في ٢١ فبراير ٢٠١٢م، وتنتهي بتاريخ ٢١ فبراير٢٠١٤م -، واستقبل بعد وصوله إلى عدن سفراء الولايات المتحدة ودول الخليج، وهو الأمر الذي فُهم بحسب العديد من وسائل الإعلام كخطوة لنقل السفارات إلى عدن دعماً للرئيس المنتهية ولايته، ووعدوه بالدعم اللامحدود ضد العناصر الانقلابية - كما صرحت وسائل الإعلام الخليجية -، وقد تزامن ذلك فعلياً مع إخراج بعض عناصر القاعدة من سجن المنصورة وسجن الأمن السياسي في عدن، وتم تشكيل مليشيات قادها ناصر منصور هادي - شقيق هادي - ضمت عناصر من تنظيم القاعدة - الذين تم إخراجهم من سجن المنصورة -، وبعض عناصر الحراك الجنوبي التي تدعو لانفصال الجنوب عن دولة الاحتلال الشمالي بحسب توصيفاتهم. قامت تلك المليشيات بمهاجمة معسكر الأمن الخاص يوم السبت ٢١مارس ٢٠١٥م، وذبحت عدداً من أفراده بعد اقتحام مقره واستبدال علم الجمهورية اليمنية بعلم الانفصال التشطيري. وعلى إثر ذلك توجهت بعض وحدات من الجيش واللجان إلى

عدن؛ لبسط نفوذ الدولة ومحاربة القاعدة، ونشطت قنوات العدوان في بث الدعايات على أن قوات صالح ومليشيا الحوثي تستخدم تعز طريقاً للمرور من أجل احتلال عدن.

وبالموازاة مع ذلك؛ بدأ حزب الإصلاح في تنفيذ أجندة العدوان المعدة سلفاً في تعز يوم الاثنين ٢٣ مارس ٢٠١٥م عندما حاصرت المظاهرات التي سيرها الحزب إلى بوابة معسكر قوات الأمن الخاصة في جولة القصر بمجاميع من المدنيين تحت مبرر نزول عناصر من الجيش ومليشيات الحوثي إلى المعسكر يوم الأحد لاحتلال مدينة عدن - كما روجت وسائل إعلامهم - مع أن جميع من دخلوا المعسكر كانوا يرتدون لباس القوات الخاصة ومنهم العديد من أبناء المحافظة بناء على الاتفاق الذي تم بين قيادة أنصار الله في تعز ومحافظ المحافظة - قام المتظاهرون بمحاصرة بوابة المعسكر وبرشق الجنود بالحجارة وبالزجاجات الحارقة استدراجاً؛ لمجزرة قد ترتكبها قوات الأمن كرد فعل لما تعرضت له من اعتداءات من المتظاهرين؛ كي تكون حجتهم لبدء الحرب على قوات الجيش واللجان الشعبية. واكب تلك الأحداث شحن إعلامي مدروس من قناتي سُهيل ويمن شباب - التابعتين لحميد الأحمر وعلي محسن -، وقناة الجزيرة وقناة الحدث السعودية، فتفرغت بشكل كامل لمواكبة تلك الأحداث. وركزت فيه على أن مليشيا الحوثي وقوات صالح تحتل مدينة تعز وتقتل أبناءها، لكن قوات الأمن تعاملت بحكمة مع المتظاهرين وفوتت الفرصة على حزب الإصلاح لجر المحافظة إلى مواجهة دامية. وفي يوم الثلاثاء ٢٤ مارس توجهت أربعة أطقم عسكرية من قوات الأمن الخاصة إلى مديرية التربة متوجهة إلى عدن عبر طريق هيجة العبد طور الباحة؛ لفك الحصار عن معسكر القوات الخاصة في عدن. وصلت تلك الأطقم إلى إدارة الأمن في التربة، فأقدمت عناصر من حزب الإصلاح - بعضها كان يحمل سلاحاً خفيفاً - على محاصرة إدارة الأمن، وحاولت اقتحامها، واشتبكت مع بعض رجال الأمن وقتلت أربعة من عناصرهم المتواجدين بداخله، وسقط ثلاثة من المقتحمين.

بدأ العدوان السعودي الأمريكي على اليمن فجر الخميس ٢٦ مارس ٢٠١٥م، فخرج (عادل الجبير) سفير آل سعود في أمريكا بعد يوم واحد من العدوان؛ ليُعلن أنهم خططوا لهذا العدوان مع أمريكا قبل ثلاثة أشهر. فكان أن سيّر حزب الإصلاح وبعض أعضاء اللقاء المشترك مظاهرات في شارع جمال في تعز - دون سواها من المدن اليمنية

- مؤيدةً للعدوان ورافعة صوراً للملك السعودي مذيلة بعبارات (شكراً سلمان). وسمعت فيها عبارات طائفية لم تألفها اليمن على غرار لا زيدي بعد اليوم. واعتدت عناصر من الإصلاح على المظاهرات التي خرجت منددة بالعدوان يوم الأحد ٢٩ مارس بالعصي والرجم بالحجارة، جُرح فيها العديد من المتظاهرين من أنصار الله ومن انظم إليهم من المواطنين الرافضين للعدوان السعودي.

وقد كان لمحافظ تعز شوقي هائل سعيد دوراً سلبياً أدى إلى جر تعز إلى ما وصلت إليه الآن، فقد اشترط إقالة قائد معسكر القوات الخاصة حمود الحارثي، وقبل تعيين عدنان الحمادي قائداً لمعسكر اللواء ٣٥ من هادي - على الرغم من الاتفاق المبرم معه من قبل أنصار الله على تجنيب تعز الصراعات ووقوفها على الحياد -، وهو ما رفضته اللجنة الأمنية المشكلة من جميع الأطراف والتي يرأسها المحافظ، فتخلى عن مسؤولياته وقدم استقالته خلال اجتماع مع رؤساء فروع الأحزاب في المحافظة وأعضاء اللجنة الأمنية متذرعاً بأسباب واهية.

استلم عدنان الحمادي مهامه في اللواء (٣٥)، وبدأ بسحب جميع الأسلحة المتوسطة والثقيلة من معسكر خالد - التابع للواء، والذي يقع في مفرق المخا في البرح، وبأوامر مباشرة من اللواء علي محسن - إلى معسكر اللواء الكائن في المطار القديم وتوزيع بعضها على القياديين في حزب الإصلاح حمود سعيد وصادق سرحان، وتم إخراج بعض الدبابات وبعض الأسلحة الثقيلة من معسكر اللواء (٣٥) بأمر من أركان حرب المعسكر الإصلاحي العقيد عبدالله العوني، ووضعها في تبة جبل جرة جوار المجمع القضائي، وهو الموقع الذي استحدثه حمود سعيد عام ٢٠١١م؛ لمحاربة الجيش وقتها. وتم كذلك توزيع آليات الكلاشنكوف على معظم أعضاء حزب الإصلاح في المدينة وبعض مديرياتها، ووجدت عناصر الإصلاح الفرصة مواتية لها في تعز، بعد أن زودها التحالف السعودي بالمال والسلاح، فعملت على نشر قوات اللواء (٣٥) - الموالي للواء على محسن الأحمر - يوم الثلاثاء ١٤ أبريل ٢٠١٥م على طول المسافة بين المطار القديم وحيّ الحصب وشارع المرور، وطوقت البنك المركزي وإدارة الأمن في المحافظة بحجة عدم صرف المرتبات، ونتيجة لهذا التأجيج المتعمد اجتمعت اللجنة الأمنية لغرض احتواء المشكلة، ووعدت الضباط والعسكر الذين طوقوا البنك وإدارة الأمن بصرف مرتباتهم مقابل

انسحابهم، لكن قوات اللواء خالفت الاتفاق فأصدرت اللجنة الأمنية بياناً حمَلت فيه حزب الإصلاح مسؤولية تدهور الأوضاع الأمنية في تعز، وإمعاناً في جر المحافظة لأعمال العنفِ والاقتتال؛ أصدر حزب الإصلاح والموالون له "قوائم العار" المتضمنة لأسماء رؤساء الأحزاب ووجهاء ومشايخ تعز الرافضين للعدوان، وكانت تهمتهم الوحيدة أنهم أدخلوا "الغزو الحوثي" إلى تعز - أو كما سمّته مواقع الفكر الوهابي "الغزو المجوسي" - ووجهت لهم تهمة الخيانة لتعز، وأصبحوا مطلوبين للمقاومة بحسب زعمهم ، لها الحق في اختطافهم أولاً، وقتلهم في وقت لاحق، وشكّلوا بعد ذلك المجلس العسكري - لما سُميّ مجازاً - بالمقاومة بقيادة حمود سعيد المخلافي.

النتائج:

١- كانت أولى النتائج هي انزلاق تعز في أعمال عنفِ غير مسبوقة بفعلِ التجييش الطائفي والمناطقي، وبدأت الحرب بين الجيش واللجان الشعبية، وبين مليشيا الإصلاح ودعاة الفكر الوهابي - المدعومة بالمال والسلاح وطائرات تحالف العدوان السعودي الأمريكي - بشكل فعلي يوم الأربعاء ١٤ أبريل ٢٠١٥م في الأماكن التي انتشرت فيها قوات اللواء ٣٥ والشوارع التي استولت عليها مليشيا الإصلاح والسلفيين - كشارع جمال وحي الجمهوري والحصب والمطار القديم -، وتم إغلاق الشوارع التي سيطرت عليها مليشيا الإصلاح. توجت تلك المواجهات بدخول الجيش واللجان الشعبية إلى معسكر المطار القديم بعد معارك دامية استمرت عشرة أيام .

٢-سقوط المدينة فعلياً في يد الجماعات المسلحة، ففي ٣٠ أبريل ٢٠١٥م؛ أُعلن تشكيل مجلس عسكري يجمع العديد من الفصائل التي سمت نفسها بـ (المقاومة الشعبية) في تعز، بقيادة العميد صادق علي سرحان - قائد اللواء ٢٢ حرس جمهوري - ونيابة حمود المخلافي - وهما من قيادات حزب الإصلاح - وبعد ذلك ظهرت العديد من الكتائب والفصائل والألوية - التي تختلف شكلاً ومضموناً، ولكنها تتفق على قتال الجيش واللجان الشعبية - باعتبارهم محتلين لتعز كما روجوا في وسائل إعلامهم ومواقعهم الالكترونية - وتتنافس فيما بينها على الدعم من المال والسلاح الذي ستحصل عليه من قبل دول التحالف ومن أبرزها:

حماة العقيدة أو كتائب أبي العباس

وهي عبارة عن جماعة سلفية مسلّحة تشكّلت أساساً من مقاتلين سلفيّين من طلّاب دار الحديث القادمين من معهد دماج في صعدة بقيادة عادل عبده فارع الملقّب بـ (أبي العباس)، وهو أحد طلّاب معهد دماج - ظلّ متوارياً عن وسائل الإعلام لفترة طويلة؛ لأن المعتقد السلفي يحرّم التصوير -، وبعد ذلك عرفه الناس، من خلال سيطرته على المدينة القديمة التي أعلنها مقراً لولايته، وتُعدّ تلك الجماعة من الفصائل العقائدية التي لعبت دوراً فاعلاً في المواجهات، وهي من الفصائل المقربة جداً من (أنصار الشريعة)، وتتلقّى دعمها من دول التحالف، وبالأخصّ من دولة الإمارات.

كتائب حسم:

وهي عبارة مجموعة من المقاتلين القادمين إلى تعز من بعض المحافظات الجنوبية والشرقية - خصوصاً من أبين وشبوة والبيضاء - بعد انسحاب الجيش واللجان الشعبية من تلك المحافظات، بعد دخول قوات الغزو من دول التحالف، وضمت مقاتلين آخرين من تعز ومحافظات أخرى، ويقودهم عدنان زريق - أحد قادة تنظيم القاعدة من أبناء محافظة شبوة وهو يتبع مباشرة علي محسن الأحمر عرّاب القاعدة في اليمن - ويُعتبر هذا الفصيل نتاج تفريخ من كتائب أبي العباس ويتلقّى دعمه من التحالف وبالأخصّ من السعودية.

لواء الطلاب:

مجموعة من المقاتلين، أغلبهم من خريجي الجامعات، وينتمي معظمهم لحزب الإصلاح، وقد لعبوا دوراً كبيراً في معركة تعز في الأيّام الأولى للمواجهات مع الجيش واللجان الشعبية، وقد ذاع صيتهم من خلال نشاطهم البارز في الجبهة الغربية، يوم استيلائهم على مقرّ اللواء ٣٥ مدرع، في شهر مارس ٢٠١٦م عند انسحاب الجيش واللجان منه، ويقود هذا اللواء عبده حمود الصغير، القيادي في التجمع اليمني للإصلاح - الذي يعمل موجهاً لمادّة الرياضيات في مدينة تعز -، ويتلقّى دعمه من التحالف وخصوصاً من قطر. وفي يوم ٣٠ يونيو ٢٠١٥م قصفت طائرات العدوان السعودي سجن تعز المركزي - الواقع في منطقة عقاقة في بير باشا -، وتم استهدافه من مليشيات حمود المخلافي بقذائف الهاون، وتبين أن السبب من القصف هو إخراج (١٢٠٠) سجين بينهم عناصر من

القاعدة ومرتكبي جرائم قتل، و حال خروجهم كونوا كتائب الموت بقيادة هاني السعودي.

٣- وحال وصول الأموال والأسلحة من دول تحالف العدوان؛ بدأت ثمار التجييش الطائفي في تعز بالنضوج تماماً، وظهرت ثمار المشروع الوهابي على أرض الواقع في تعز فعلاً، من خلال الأفعال التي ارتكبها المنتمون للقاعدة وداعش - وهي الأفعال بعينها التي حدثت في العراق وسورية وليبيا -، فعندما انسحب الجيش واللجان الشعبية يوم السبت ١٥ أغسطس ٢٠١٥م من بعض المواقع والشوارع في تعز - كموقع العروس في جبل صبر المطل على تعز وقلعة القاهرة وشارع المرور -؛ حدث بعدها ما لم يكن في الحسبان، ففي يوم الأحد ١٦ أغسطس؛ تم قتل أربعة من المختطفين من بيوتهم من أسرة الرميمة - في قرية حدنان مديرية مشرعة وحدنان -، وهم مكبلي الأيدي وأمام الناس، فقد تم سحب جثة عباس الرميمة في الطرقات وسط تصفيق وصفير العامة وزغردات النساء، يومها تم إلقاء جثة الأكاديمي الدكتور عفيف الرميمة من الدور الرابع لمدرسة مجمع السعيد في حدنان، وتم اعتقال عشرين شخصاً من الأسرة نفسها، ونهب بيوتهم وإحراقها في قرية حدنان، وكل تلك الأفعال حدثت لأسباب طائفية بحتة. وقد شاهد العالم كذلك ما حدث - في اليوم نفسه - في شوارع تعز من سحل لجثث القتلى من الجيش واللجان - من أبناء محافظات صنعاء وصعدة وعمران وذمار - خلف السيارات والدراجات النارية وصلبٍ وإحراقٍ للجثث، ورمي بعضها في مستنقعات المجاري، وإذا كان المجرم يحرص على إخفاء جرائمه؛ فإن الجرائم التي حدثت في تعز تم الحرص على تصويرها وتوثيقها وبثها في معظم القنوات والمواقع الإخبارية التابعة لما يُسمى بالمقاومة، وذلك الفعل الشنيع وغير المسبوق كان عبارة عن رسالة موجهة لأبناء المحافظات الشمالية - التي يتواجد فيها أبناء محافظة تعز -، والهدف منها أن يؤدي إلى رد فعلٍ ضد أبناء تعز وإكسابها البعد المناطقي والطائفي أيضاً.

لكن الحكمة والمسؤولية التي تحلى بها أبناء تلك المحافظات - خصوصاً العاصمة

صنعاء - فوتت الفرصة على ذلك المشروع المعد مسبقاً، بل إن صنعاء استقبلت أبناء تعز الذين نزحوا من جحيم المواجهات فيها، وسقطت فبركات إعلام حزب الإصلاح ودول التحالف بأن الجيش واللجان يستهدفون قتل أبناء تعز، فكيف تهرب الضحية للاحتماء في حضن الجاني؟!

وكان يمكن اعتبار تلك الحوادث عرضية؛ ولكنها تكررت، وذلك بحوادث السحل والصلب والتمثيل بالجثث وحرقها، ورميها في مكبات النفايات والمجاري في تعز يومي الخميس والجمعة ١٠، ١١ مارس ٢٠١٦م في حيي الحصب وبير باشا - ولأبناء تعز عينها أو المتحوثين كما سموهم -، وتم سرقة ونهب وإحراق بيوت المخالفين في الأحياء التي يتم اقتحامها من مليشيا حزب الإصلاح وكتائب حسم والصعاليك وحماة العقيدة، وللمرة الثالثة أيضاً في يوم السبت ٩ نوفمبر ٢٠١٦م في حي الجحملية، وتم صلب فواز الشميري وتعليق جثته في جولة المستشفى السويدي في منظر لم تألفه اليمن، وتم سحل جثة جميل الجنداري في حي الجحملية، ورافق ذلك إلقاء العديد من الجثث في سائلة ديلوكس المخصصة للمجاري، وتمت سرقة وإحراق وتفجير العديد من البيوت في الجحملية. فكان الغرض من كل تلك الأفعال وتصويرها وتضخيمها هو إثارة النعرات المناطقية والطائفية، وتوسيع الفجوة التي تمنع جلوس الأطراف على طاولة المفاوضات وخلق بذور الأقلمة والتقسيم على أساس مناطقي وطائفي على المدى البعيد، وهو ما فشلت في تحقيقه المبادرة الخليجية في مؤتمر الحوار بالسياسة، وحاولت الحصول عليه دول التحالف بالعدوان وبواسطة أدواتها في تعز. بالإضافة إلى تلك الأعمال؛ تم تفجير العديد من الأضرحة في قرية حدنان وقرية الصراري - في جبل صبر -، وفي منطقة حبيل سلمان وصينة في مديرية المظفر وحسنات في مديرية صالة، وكان أشهر تلك الأضرحة ضريح ولي الله (عبد الهادي السودي) - وعمره قرابة خمسمائة عام - في المدينة القديمة يوم ٣٠ يوليو ٢٠١٦م.

٤- تعرضت المنازل في تعز لتدمير هائل بفعل المواجهات المسلحة داخل شوارعها وأزقتها، وبسبب غارات طائرات التحالف التي استهدفت الأماكن الحيوية - كقلعة القاهرة باعتبارها أهم معلم أثري وسياحي -، والبنى التحتية كمحطة كهرباء المخا.

وتأكيداً على دور حزب الإصلاح في جر مدينة تعز إلى مستنقع الاحتراب المناطقي والطائفي؛ ظهر حمود سعيد المخلافي - قائد ما يُسمى مقاومة تعز - في يوم ٢٠ نوفمبر ٢٠١٥م في مقابلة على قناة الجزيرة مع حمدي البكاري، قال فيها: إنه رفض اقتراحاً للجيش واللجان الشعبية بالانسحاب من تعز حقناً للدماء وبدون مقابل سوى حفظ ماء وجوههم كما قال بالنص، ولكنه رفض ذلك الاقتراح كما قال - مما أثار استغراب المذيع - وقد أكد بقوله: إنه وأمثاله ليسوا سوى أدوات وبيادق لا حول لها ولا قوة في رقعة شطرنج تحركها أموال دول تحالف العدوان، ويتم الاستغناء عنها متى ما أدت الغرض - وهذا ما تم فعلاً حال خروجه من تعز في مارس ٢٠١٦م متوجهاً للإقامة في تركيا ولا يزال مقيماً فيها حتى الآن -، وقد وجهت له العديد من الانتقادات - ولقيادة حزب الإصلاح - بأنهم سرقوا الأموال التي حصلوا عليها، وباعوا الأسلحة التي زودتهم بها دول التحالف من العديد من المسؤولين والمحللين السياسيين من دول التحالف - المحلل فهد الشليمي من الكويت على سبيل المثال وضاحي خلفان من الإمارات - واتّهمهم خالد بحاح - رئيس الوزراء الأسبق - في مقابلة على قناة بي بي سي البريطانية بأنهم حصلوا من السعودية لوحدها على مبلغ (٣٠٠) مليون ريال سعودي فضلاً عن الأسلحة، ولم يفعلوا به شيئاً يذكر، كما أكد ذلك أبو العباس في مقابلة مع موقع (تعز الآن) يوم ٢٣ أكتوبر٢٠١٦م، موضحاً حجم الأموال التي استلمها من السعودية، وتم توزيعها على قادة المليشيات، وفضح حجم الأموال التي أخذها رئيس حزب الإصلاح في تعز، ولم تصل إلى الجبهات كما قال وأكد كذلك أن الغرض من العدوان هو إذكاء الحرب الطائفية من خلال نقله لكلام الأمير السعودي فهد بن تركي الذي قابله في السعودية، وقال له: يريد محاربة الرافضة في اليمن!

الخاتمة:

يحق لكل متابع أن يسأل: ماذا يعني وقوع تلك الحوادث في تعز بالذات دون سواها من المدن؟ والإجابة كما قلنا، أن ما حدث كان نتيجة طبيعية متوقعة لمقدمات سبقتها وثمار ناضجة غرس بذورها حزب الإصلاح والاستعانة بدعاة الفكر الوهابي التكفيري وبالمال السعودي، ويعني أيضاً أن قيم وثقافة القاعدة وداعش هي من تحكم تعز الآن، وأن العقل الوهابي التكفيري هو العقل الجمعي الذي فرض نمط تفكيره على الجميع.

الرسالة الخطيرة التي سربتها تلك الحوادث هي أن الثقافة هي من سُحلت في تعز، وتم صلب التعايش وإحراق القيم المدنيّة، وأن القيم والأعراف القبلية لم يعد لها وجود في تعز، وسبب حدوث تلك الأفعال في تعز هو نتيجة مقدمات وثمار زرعها حزب الإصلاح مستغلاً البنية الاجتماعية الانتقالية فيها، فلم يصل المجتمع التعّزي إلى مضمون وجوهر قيم الدولة المدنية حتى يحتكم إلى تلك القيم، ولم يعد ذلك المجتمع مجتمعاً قبلياً تحكمه أعراف وقوانين القبيلة التي تنظم سلوك الأفراد في أوقات غياب أجهزة الدولة، وانعدام قيم المدنية. أضحت تعز مدينة بلا هوية لا تعرف من هي؟ وماذا تريد؟ لم تعد شافعية كما كانت، ولم تصبح وهابية كما أرادوا لها. أراد لها مشايخ حزب الإصلاح أن تقلد القبائل وتحمل السلاح ضد الدولة وضد المخالفين؛ لكنها لم تحمل قيم وأخلاق من يحمل السلاح من أبناء القبائل، وعندما تحمل سلاحاً ولا تحمل معه أخلاقاً وفهماً وفكراً يوجهك؛ فإنك حتماً سوف تتحول إلى داعشي بامتياز، تحررت تعز من كل تلك الأشياء، مع سبق الإصرار والترصد، وقد دفعت دول تحالف العدوان الأموال الضخمة لإخوان اليمن حزب الإصلاح؛ كي يكون مصير تعز أشبه بمصير حلب والموصل، وسوف يسقط هذا المشروع في تعز عندما تنهار أعمدته في حلب والموصل، وما ذلك على الله ببعيد.